ملك النهر الذهبى

(٨)

وَوَاصَلَ جُلْكُ سَيْرَهُ ؛ وَهُوَ يَكَادُ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ !! لَمَّا رَأَى الْوَلَدَ الصَّغِيرَ ، قَدْ عَادَتْ إِلَيْهِ الْحَيَاةُ !! بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَى وَشْكِ أَنْ يُحْرَمَ مِنْهَا ، وَشَعَرَ ، وهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذٰلِكَ ، أَنَّ الْجَوَّ قَدِ امْتَلَأَ بِنَغَمَاتٍ سِحْرِيَّةٍ جَمِيلَةٍ ، وَأَنَّ السَّمَاءَ قَدْ صَفَا لَوْنُهَا ، فَصَارَ كَالْبِلَّوْرِ الْأَزْرَقِ وَأَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ انْتَشَرَتْ فِي انْحَائِهَا ، الْأَزْهَارُ وَالرَّيَاحِينُ ! فَمَلَأَتِ الْهَوَاءَ بِعَبِيرِهَا الذَّكِيِّ ! حِينَذَاكَ ، شَعَرَ جُلْكُ أَنَّهُ أَسْعَدُ انْسَانٍ فِي الْحَيَاةِ ، فَوَاصَلَ سَيْرَهُ ، وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ أَمَلاً ، وَوَجْهُهُ بِشْراً ؛ وانْقَضَتْ سَاعَةٌ لَمْ يَشْعُرْ فِي اثْنَائِهَا بِتَعَبٍ ؛ وَإِنَّمَا شَعَرَ فِي نِهَايَتِهَا بِحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الْمَاءِ ، فَأَمْسَكَ زُجَاجَةَ الْمَاءِ الْمُقَدَّسِ ، لِيَشْرَبَ فَلَمْ يَجِدْ بِهَا سِوَى خَمْسِ قَطَرَاتٍ أَوْ سِتٍّ !! فَوَقَفَ حَيْرَانَ أَسِفاً !! وَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ ، إِذِ اسْتَلْفَتَ نَظَرَهُ كَلْبٌ صَغِيرٌ مَطْرُوحٌ عَلَى الْأَرْضِ ، قَدْ تَدَلَّى لِسَانُهُ ، وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ لِشِدَّةِ مَا بِهِ مِنَ الْعَطَشِ !! فَوَقَفَ جُلْكُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي حَسْرَةٍ وَأَلَمٍ شَدِيدَيْنِ !! قَائِلاً فِي نَفْسِهِ : « مِسْكِينٌ ذٰلِكَ الْكَلْبُ !! وَدِدْتُ لَوْ كَانَ مَعِي مَاءٌ أَكْثَرُ مِمَّا مَعِي !! وَلٰكِنْ كَيْفَ أَتْرُكُهُ وَأَمْضِي ؟ إِنَّهُ يَهْلِكُ ، وَلاَ شَكَّ ، قَبْلَ أَنْ أُحْضِرَ إِلَيْهِ مَاءً غَيْرَ الَّذِي مَعِي !! يَا إِلٰهِي ! مَاذَا أَعْمَلُ ؟ إِذَا أَعْطَيْتُهُ مَا مَعِي مِنَ الْمَاءِ ، ضَاعَتِ الْفُرْصَةُ مِنِّي !! وَإِنْ لَمْ أُعْطِهِ ، يَمُوتُ وَأَحْظَى أَنَا بِالذَّهَبِ الْمَوْعُودِ !! » وَهَمَّ بِتَرْكِهِ ، قَاصِداً « النَّهْرَ الذَّهَبِيَّ » ، وَلٰكِنَّهُ ، بَعْدَ خُطْوَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثٍ ، عَادَ فَنَظَرَ فِي عَيْنَيِ الْكَلْبِ الصَّغِيرِ ؛ ثُمَّ صَاحَ : « أَبَداً لَنْ تَمُوتَ ، أَيُّهَا الْحَيَوَانُ الصَّغِيرُ !! لاَ أَدَعُكَ تَمُوتُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي أَحْمِلُ حَيَاتَكَ فِي يَدِي !! » ثُمَّ وَضَعَ زُجَاجَةَ الْمَاءِ ، عَلَى فَمِ الْكَلْبِ قَائِلاً : « اشْرَبْ مَا بَقِيَ مِنَ الْمَاءِ ، لَعَنَ اللهُ الذَّهَبَ !! « وَمَلِكَ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ » . . أَيْضاً !! »

وَمَا كَادَ الْمَاءُ يَصِلُ إِلَى فَمِ الْكَلْبِ ! حَتَّى انْتَصَبَ وَاقِفاً عَلَى رِجْلَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ !! وَفِي لَحْظَةٍ ، اخْتَفَى ذَيْلُهُ ؛ وَطَالَتْ أُذُنَاهُ ؛ وَاحْمَرَّ أَنْفُهُ ؛ وَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ ؛ وَفِي لَحْظَةٍ أُخْرَى ؛

اخْتَفَى الْكَلْبُ تَمَامًا ؛ وَبَدَا مَكَانَهُ ، صَدِيقُ « جِلَكْ » ، الْقَدِيمُ ، « مَلِكُ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ ! »

الْمَلِكُ : « أَشْكُرُكَ كَثِيرًا يَا بُنَيَّ !! لَا تَجْزَعْ !! وَلَا تَبْتَئِسْ ! ! سَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ وَفْقَ مَا تَرُومُ ! »

جِلَكْ ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الاضْطِرَابُ وَالْوَجَلُ : « عَفْوًا يَا مَوْلَايَ ! لَمْ أَقُمْ إِلَّا بِبَعْضِ وَاجِبِي ! »

الْمَلِكُ : « وَلَكِنْ لِمَاذَا أَرْسَلْتَ إِلَى أَخَوَيْكَ الْقَاسِيَيْنِ إِنَّهُمَا لَا يَعْرِفَانِ الرَّحْمَةَ !! لَقَدْ حَوَّلْتَهُمَا إِلَى حَجَرَيْنِ أَسْوَدَيْنِ ، وَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءً وِفَاقًا ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

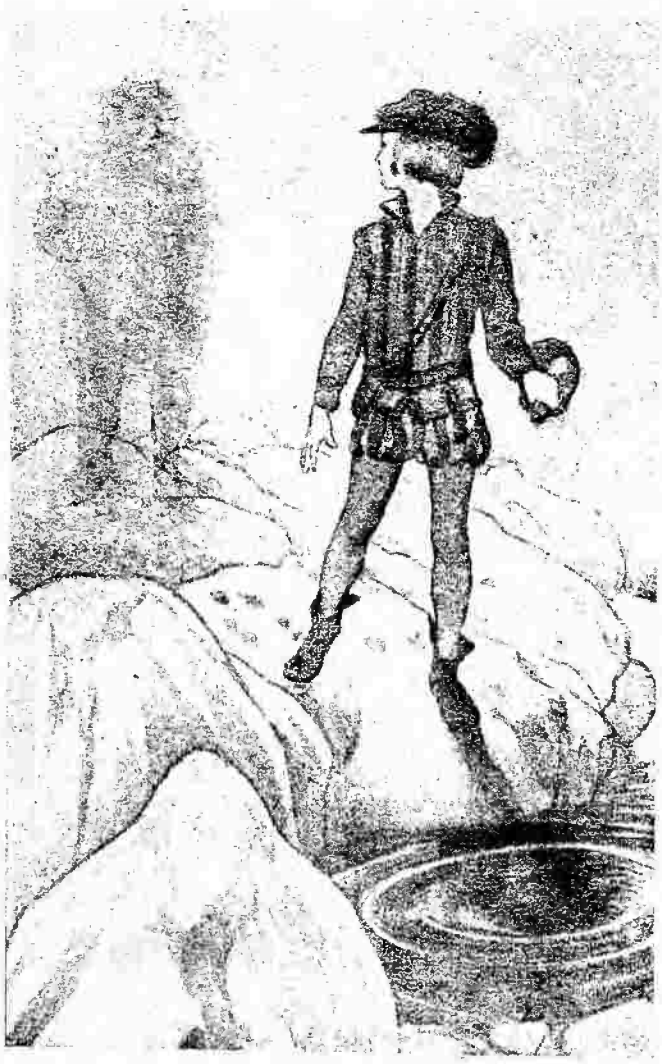

قال ذلك ثم أخذ يتضاءل . . . .

جِلَكْ ، وَالدُّمُوعُ تَكَادُ تَتَسَاقَطُ مِنْ عَيْنَيْهِ : « يَا مَوْلَايَ ! أَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِكَ أَنْ تَرْحَمَهُمَا ؟ ! »

الْمَلِكُ غَاضِبًا : « كَيْفَ اعْفُو عَنْهُمَا ؛ وَقَدْ قَذَفَا فِي نَهْرِي مَاءً غَيْرَ مُقَدَّسٍ ! ؟ »

جِلَكْ ، مُرْتَبِكًا : « وَلَكِنْ ! ! مَوْلَايَ !! أَلَمْ يَكُنْ ...!! أَلَمْ يَكُنِ الْمَاءُ مِنَ الْكَنِيسَةِ ! ؟ »

الْمَلِكُ ، فِي حِدَّةٍ وَغَضَبٍ : « يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ مِنْ إِحْدَى الْكَنَائِسِ ! يَا بُنَيَّ ! وَلَكِنَّ الْمَاءَ ، الَّذِي يَضَنُّ بِهِ صَاحِبُهُ عَلَى الْعَطْشَانِ ، وَالْمُشْرِفِ عَلَى الْمَوْتِ ، لَا يَكُونُ مُقَدَّسًا ؛ حَتَّى وَلَوْ بَارَكَتْهُ فُسُسُ الْعَالَمِ جَمِيعًا ؛ وَالْمَاءُ ، الَّذِي يَبْذُلُهُ صَاحِبُهُ فِي سَبِيلِ الرَّحْمَةِ ، مُقَدَّسٌ ، أَيًّا كَانَ مَوْرِدُهُ ! »

قَالَ ذٰلِكَ ، ثُمَّ انْحَنَى ، وَالْتَقَطَ وَرْدَةً بَيْضَاءَ جَمِيلَةً ، عَلَى إِحْدَى أَوْرَاقِهَا ثَلَاثُ قَطَرَاتٍ مِنَ النَّدَى ! ! وَهَزَّهَا فِي زُجَاجَةِ جُلْكْ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ قَائِلًا : « اسْمَعْ يَا جُلْكْ ! ! اقْذِفْ هٰذَا الْمَاءَ فِي النَّهْرِ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ انْزِلْ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْجَبَلِ ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى « وَادِي الْكُنُوزِ » .

قَالَ ذٰلِكَ ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَتَضَاءَلُ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِهِ إِلَّا أَلْوَانٌ زَاهِيَةٌ جَمِيلَةٌ ، ظَلَّتْ مُعَلَّقَةً فِي الْهَوَاءِ فَتْرَةً قَصِيرَةً ، ثُمَّ اخْتَفَتْ ؛

أَمَّا جُلْكْ ؛ فَتَسَلَّقَ الْجَبَلَ ، وَوَصَلَ إِلَى حَافَةِ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ ! ! وَوَقَفَ يُمَتِّعُ نَاظِرَيْهِ بِمَائِهِ الْعَذْبِ ، وَهُوَ يَنْدَفِعُ فِي مَجْرَاهُ ، تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ ، كَأَنَّهُ ذَهَبٌ سَائِلٌ ! ! ثُمَّ قَذَفَ مَا كَانَ بِالزُّجَاجَةِ مِنْ قَطَرَاتِ الْمَاءِ ؛ فَانْفَتَحَتْ فِي الْمَجْرَى ، حَيْثُ سَقَطَتِ الْقَطَرَاتُ ، فَتْحَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ ؛ أَخَذَ مَاءُ النَّهْرِ ؛ يَنْسَرِبُ فِيهَا ! ، بِصَوْتٍ مُوسِيقِيٍّ جَمِيلٍ ! ! وَوَقَفَ جُلْكْ ؛ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ ، مَذْهُولًا دَهِشًا ! ! فَالْمَاءُ لَمْ يَتَحَوَّلْ إِلَى ذَهَبٍ ! كَمَا تَوَقَّعَ ! ! ! بَلْ لَمْ يَبْقَ بِالنَّهْرِ أَصْلًا ! ! وَلٰكِنَّهُ رَغْمَ ذٰلِكَ صَمَّمَ عَلَى أَنْ يُنَفِّذَ مَا أَمَرَ بِهِ « مَلِكُ النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ » إِلَى النِّهَايَةِ ! ! فَنَزَلَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ ، فَوَصَلَ إِلَى وَادِي الْكُنُوزِ وَلٰكِنْ ! مَاذَا رَأَى ! ! رَأَى نَهْرًا كَبِيرًا ، يَخْتَرِقُ الْوَادِي ، وَيَنْسَابُ فِي جَوَانِبِهِ ؛ بَيْنَ الْحَدَائِقِ الْغَنَّاءِ ، وَالْمَرَاعِي الْخَضْرَاءِ ؛ وَالْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ ، وَالثِّمَارِ الْيَانِعَةِ ؛ ذٰلِكَ الْوَادِي ! الَّذِي تَرَكَهُ قَاعًا صَفْصَفًا ، لَا شَجَرَ فِيهِ وَلَا نَبَاتَ ، قَدِ اسْتَحَالَ إِلَى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ! !

وَأَخَذَ « جُلْكْ » يَطُوفُ بِالْوَادِي ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ أَنَّ أَرْضَهُ ، الَّتِي فَقَدَهَا بِسَبَبِ اخْوَيْهِ ، وَقَسْوَتِهِمَا ، قَدْ عَادَتْ إِلَيْهِ ! ! أَغْنَى وَأَجْمَلَ مِمَّا كَانَتْ ! ! عِنْدَ ذٰلِكَ أَدْرَكَ مَا قَصَدَ إِلَيْهِ مَلِكُ « النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ » !

وَبَعْدَ قَلِيلٍ ، بَنَى جُلْكْ لِنَفْسِهِ مَنْزِلًا بِالْوَادِي وَجَعَلَهُ كَعْبَةَ الْفُقَرَاءِ ، وَمَقْصِدَ الْمُحْتَاجِينَ ! وَدَأَبَ فِي الْعَمَلِ فِي الْأَرْضِ ؛ فَامْتَلَأَتْ خَزَائِنُهُ بِالْمَحَاصِيلِ وَزَادَ إِيرَادُهُ ، فَجَمَعَ ثَرْوَةً طَائِلَةً ، وَالْتَفَّ حَوْلَهُ النَّاسُ مُعْجَبِينَ بِسُمُوِّ أَخْلَاقِهِ ، وَعَظِيمِ شَجَاعَتِهِ .

وَلَوْ ذَهَبْتَ الْيَوْمَ ، إِلَى النَّهْرِ الذَّهَبِيِّ « بِوَادِي الْكُنُوزِ » ، لَرَأَيْتَ عَلَى حَافَتِهِ ، حَجَرَيْنِ كَبِيرَيْنِ أَسْوَدَيْنِ يَنْدَفِعُ مِنْ فَوْقِهِمَا الْمَاءُ انْدِفَاعًا شَدِيدًا ؛ وَلَا يَزَالُ الْحَجَرَانِ مَعْرُوفَيْنِ « بِالْأَخَوَيْنِ الْأَسْوَدَيْنِ » .